مقدمة لا بد منها

الحمد لله وكفى. . وصلى الله وسلم على نبيه المصطفى وبعد،

بين يديك أيها القارئ الكريم ورقات شاء الله تعالى أن تكون فكرة عابرة ثم أسئلة ملحة فرضتها القراءة والاحتكاك والتغير الثقافي والفكري الذي تعيشه الأمة في عصرها الراهن.

إن الناظر في أحوال مجتمعاتنا الإسلامية؛ ليدرك تمام الإدراك ما للخطاب الشرعي والفقهي على وجه الخصوص من حضور كبير وتأثير عظيم في الناس، وقد زاد هذا الحضور فعالية وقوة = وسائلُ الاتصال الحديث التي قاربت بين بيئات الناس وسهلت انتقلت الأفكار والأحكام وتفاعل الناس معها.

ولقد كان من قدر هذه الأمة أن يكون العلماء والفقهاء هم أبرز من يؤثر فيها، فمنحهم الناس كثيراً من الثقة ونظروا إليهم في غالب الأحيان بمصداقية بناء على ما للعلماء من اتصال بالعلم الإلٰهي مما فيه مصالح الناس العاجلة والآجلة.

وهذه المكانة العظيمة التي يتبوؤها أهل العلم والمعرفة في نفوس الناس وهم لها أهل يحيط بها ملابسات خطيرة من أبرزها:

ـ تعرض العلماء لمحاولاتٍ منظمة تهدف إلى الزعزعة من هذه المكانة وتغييرها بتشويه متعمد في كثير من الأحيان.

ـ نظرة التقديس التي يضفيها بعض الأتباع على متبوعيهم من غير وعي وتفريق بين مبدأ المكانة والتقديس.

ـ الانفتاح الإعلامي الرهيب جعل العلماء على المحك في طرحهم الفقهي، وبسبب ضعف خبرة الناس بالعلم، وعدم إدراكهم للخلاف والمذاهب واختلاف الأقوال والراجح والمرجوح ظن بعضهم أن العلم لحقه شيء، وأن العلماء تغيروا واختلفوا وبدأت الصورة تهتز في مخيلة المتلقين من جماهير المسلمين.

ـ التطور العلمي الهائل وتفتح أذهان الناس على أفكار ورؤى جديدة، وقراءات لم تكن متوفرة من قبل وتغير أساليب وأنماط التعليم بصفة خاصة والحياة بصفة عامة، وانتقال كثير منهم من منطقة التلقي والقبول إلى منطقة النقد والفحص والتمحيص عن علم في بعض الأحيان وعن اعتداد بالنفس وقدرات العقل في أحيان أخرى.

هذه الظروف الجديدة جعلت من الخطاب الفقهي خطاباً يحتاج إلى تجديد وإلى إدراك لمراميه وأهدافه ومؤثراته وما يعتريه من قوة وضعف وصحة وسقم، فهو تماماً كالكائن الحي تعتريه

عوامل تشبه إلى حد كبير في تأثيرها العوامل التي تعتري الكائنات الحية الأخرى.

إنه بلا شك أن العلماء ورثة الأنبياء وأن الميراث الذي ورثوه هو علم النبوة وشريعتها وأخلاقها، ثم أضافوا إليها من عقولهم قبسات تراكمت عبر الأجيال المعرفية؛ لتكون مدونة فقهية ضخمة مليئة بالمسائل والرسائل والفتاوى والأحكام.

وهؤلاء الورثة ليسوا كائنات ملائكية قادمة من السماء أو معصومين أسكنهم الله الأرض، وميزهم بهذه العصمة بل هم بشر من البشر يعتريهم النقص والخلل والخطأ ولهم وعليهم.

وكانت الأسئلة الملحة تتكاثر حول تأثرهم في اختياراتهم الفقهية بطبيعتهم البشرية وبمحيطهم الاجتماعي والثقافي والجغرافي؟

ألا يمكن أن تكون هذه الأمور وغيرها حجاباً يحول دون الفقيه ودون الرؤية العلمية الخالصة وبقدر سماكة هذا الحجاب وقوته يقترب أو يبتعد عن معرفة الراجح بدليله، أو قد يصل إليه لكن ما أوصله إليه ليس الدليل المحض فحسب بل وافق الحق شيئاً في النفس فتمكن منه!

إن هذا الكتاب يعالج هذه الفكرة الرئيسة في أسئلة من أبرزها:

ما علاقة الفقيه واختياره الفقهي بتكوينه النفسي في مناطق الشعور واللاشعور؟ وهل يمكن أن تكون تجارب الفقيه النفسية

المختزنة في اللاشعور مهملة لا تؤثر في توجيه العقل واختياراته بما يوافق كوامنها المكبوتة؟

هل ما مرّ به الفقيه من تنشئة اجتماعية وأنماط تربوية اتسمت بالشدة أو اللين لا تؤدي دورها في تكوينه العلمي وطريقة تعاطيه مع العلم..؟

أليس لطبيعته النفسية وسماته الشخصية من لين أو قسوة أو انطواء أو انبساط أو انغلاق أو انفتاح أثر في اختيار ما يناسب هذه السمات والطبيعة، وأن هذا التناسب يظهره الفقيه في صورة اختيار فقهي مدعم بالدليل وهو قبل أن يسنده دليل شرعي ساندته الطبيعة والجبلة..؟

هذه البيئة التي يعيش فيها الفقهاء كغيرهم بنواحيها الجغرافية من سهل وجبل وبر وبحر وضيق واتساع وبرودة وحرارة، ونواحيها الاجتماعية من قيم وعادات وأعراف وتقاليد، ونواحيها الثقافية والحضارية وأنماط الفكر والعلم وطرائقه = ألا يمكن أن تؤثر بشكل أو بآخر في تعامل الفقيه معها ومع الحياة فيها مما يكسبه طرقاً معينة في الاختيار والترجيح..؟

والحياة السياسية بما فيها من استبداد وظلم وقهر وتسلط وما فرضته من أجواء غير صحية، ما هو تأثيرها على فقه الفقهاء وقدراتهم العقلية وحرية اختياراتهم بعيداً عن سيف الخوف أو إغراء الرجاء..!؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما يحاول هذا الكتاب أن يسلط

الضوء عليها ويسبر أغوارها، مساهمة منه في خدمة الخطاب الفقهي وخدمة أهل هذا الفن وتلمساً للاعتذار عنهم فيما يظنه بعض الظانين تفريطاً منهم أو خطأ متعمداً.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة أحب أن أشير إلى أن البحث لا يهتم بقضية الهوى الظاهر والتعصب البين الذي يرتكبه بعض الفقهاء عمداً من عند أنفسهم، ويمكن أن نحدد ثلاثة أنواع من الهوى أشار إليها ابن تيمية اثنان منها في دائرة البحث وأما الثالث فهو خارج عن نطاقه.

وهذه الأنواع الثلاثة التي أشار إليها شيخ الإسلام في مواضع متفرقة من تراثه هي:

الأول: الهوى الظاهر المذموم: وهو ما يتحدث عنه كثيراً أهل العلم وأرباب السلوك من مثل قول ابن تيمية: «وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمُّه، فلا يستحضر الله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى برضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه»[1].

وهذا النوع من الهوى هو المشتهر والحديث عنه كثير عند ابن تيمية وغيره من أهل العلم، وقد حذر منه القرآن والسُّنَّة، وهو خارج عن حدود البحث إلا ما يأتي تبعاً أو عرضاً.

الثاني: الهوى الخفي: وهو نوع من الهوى لا يكاد يدركه

(١) ابن تيمية: منهاج السُّنَّة ٥/٢٥٦.

صاحبه، ويمكن أن يكون كامناً في أعماق اللاشعور وله أثر في اختيار المرء وفقهه، وأشار إليه ابن تيمية في منهاج السُّنَّة بقوله: «إن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة أهل البيت وغيرهم قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن ونوع من الهوى الخفي فيحصل بسبب ذلك مالاً ينبغي اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتقين»[1].

وهذا داخل في حدود البحث وتسمية ابن تيمية له بهذا الاسم يدل على سعة علمه رَحِمَهُ اللَّهُ وشدة معرفته بخبايا النفس البشرية.

الثالث: الهوى المركب: وهو شبيه بالذي قبله ويشبه أن يكون هو هو، ولكن لأن فيه تفصيلاً حسناً من ابن تيمية وتوضيحاً على توضيح آثرنا ذكره مستقلاً، وفيه يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ثم قسم آخر وهم غالب الناس وهو أن يكون له هوى وله في الأمر شبهة فتجتمع الشهوة والشبهة... فالمجتهد المحض مغفور له أو مأجور، وصاحب الهوى المحض مستوجب للعذاب، وأما المجتهد الاجتهاد المركب على شبهة وهوى فهو مسيء، وهم في ذلك على درجات بحسب ما يغلب وبحسب الحسنات الماحية، وأكثر المتأخرين من المنتسبين إلى فقه أو تصوف مبتلون بذلك**»[2].

وهذا القسم أيضاً داخل في حدود البحث لأن البحث يعالج

---

(١) ابن تيمية: منهاج السُّنَّة ٤/٣٢٦.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ٢٩/٤٥.

مثل هذه الخفايا النفسية التي تفرضها ملابسات اجتماعية وسياسية وبيئية تحيط بالفقيه، وشهوات تختلط بالشبهات.

وقد عالج البحث أربعة من هذه العوامل المؤثرة هي:

- حجاب النفس.
- حجاب العادة.
- حجاب البيئة.
- حجاب الاستبداد.

وقد قدمت قبل الحديث عنها بمدخل شمل ما يلي:

- العلماء بين المكانة والتقديس.
- طبيعة الخلاف الفقهي.
- أسباب الخلاف رؤية سابقة.
- أسباب الخلاف رؤية لاحقة.

ثم ختمت في نهاية الكتاب برؤية مقتضبة حول التخفيف من وطأة هذه الحجب على الفقيه، والتقليل من أثرها والحد من كثافتها.

وهذه الحجب ليست محصورة فيما ذكرناه بل هناك غيرها، وإنما آثرنا الحديث عن هذه لشدة تأثيرها، وقد تسمح الأيام القادمة بإكمال شيء مما تبقى، أو يبسط القول فيه لباحث آخر.

وختاماً:

أسأل الله بمنه وفضله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه

الكريم، سالماً من الهوى والتعصب، وأن ينفع به محرره وقارئه في الدارين، فله سبحانه يرجع الفضل فيما من به من إتمامه وأسأله أن يستر العيب بستره الجميل.

ولا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أمد يد الشكر والعرفان لكل الذين قرأوا المقال الأول حول هذا الموضوع وأبدوا ثناء عاطراً وملحوظات قيمة أفدت منها كثيراً.

ولأخينا الشيخ عبد الله بن مرزوق القرشي المشرف العام على مركز نماء أجزل الشكر على متابعته وسؤاله ومشاركته بالرأي والفكر حتى ظهور الكتاب للقارئ الكريم.

وإن أنس أحداً فلا أنس الأخ الحبيب والشيخ الفاضل ياسر المطرفي على تفضله الكريم بقراءة المسودة الأولية للبحث وما أبداه من ملاحظات وآراء واقتراحات وإضافات كانت في غاية الجودة وأثرت البحث فجزاه الله خير الجزاء.

ولمركز نماء للبحوث والدراسات بإدارته وباحثيه وما يقوم به من جهود مميزة في تقديم الدراسات الفكرية بصورة مشرقة ومشرّفة، تجمع بين أصالة الاستدلال وقوته وجودة الطرح وبراعة الأسلوب مما يعد لبنة هامة في البناء الثقافي للأمة في حقبتها المعاصرة، وقد بادر مشكوراً في نشر هذا الكتاب تفضلاً وتكرماً، فجزاهم الله خير الجزاء على ما بذلوا وقدموا.

ولكم أنتم أيها المتصفحون لأوراقه أصدق الدعوات بأن يرزقكم الله العلم النافع والعمل الصالح آملاً من كل قارئ يجد

ملاحظة أو توجيهاً أو تعقيباً أن يتفضل به علي عبر البريد الإلكتروني، وسيكون محل الاهتمام والتقدير.

وفقنا الله جميعاً لما يحب ويرضى هو ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الله بن رفود السفياني
ASUFYANI@HOTMAIL.COM